

الفصل التاسع

المدينة، الحياة، والحرب

كان النبي ﷺ وأصحابه الذين قدموا من مكة يستقرون تدريجياً في المدينة، وأخذوا يجدون مواقعهم في هذه البيئة الجديدة، وقد مكث محمد ﷺ ضيفاً خلال الأشهر السبعة الأولى في بيت أبي أيوب رضي الله عنه إلى أن تم بناء المسجد والمنزلين القرييين منه، ثم انتقل النبي ﷺ إلى منزله وانضمت إليه زوجته سودة - رضي الله عنها - ثم بعد بضعة أشهر، عائشة - رضي الله عنها - التي جرى الاحتفال بزفافها في المدينة، ثم وصلت بنات النبي ﷺ في الأسابيع اللاحقة.

وهكذا فقد كان مجتمع جديد يتوطد في ظروف بالغة الصعوبة، وكانت الصراعات القبلية والمنازعات على السلطة كثيراً ما تعقد العلاقات بين المسلمين وأفراد العشائر الأخرى، وذلك رغم الجهود والتحالفات، وفي بعض الأحيان كانت تطفو على السطح بين المسلمين أنفسهم حزازات قديمة من أيام الجاهلية تسبب التوترات بين الأفراد، ومع ذلك فقد تواصلت التربية الدينية والروحية، وكان النبي ﷺ دائماً جاهزاً ليذكرهم بالمبادئ التي يتعين على المؤمنين التقيد بها منذ الآن.

أما في مكة فقد كان الغضب يثور وكان نجاح المهاجرين ينظر إليه لا بوصفه إذلالاً لهم فحسب، بل تهديداً لتوازن القوى في شبه الجزيرة العربية كلها، فقد كانت قريش، طيلة عشرات السنين، تحتل بشكل

طبيعي مركز الزعامة المطلقة لا بسبب ماضيها فحسب، بل أيضاً لأنها كانت المسؤولة عن مدينة مكة ومقر الأوثان والموقع الذي كانت تلتقي فيه القبائل مرة في السنة لأغراض تجارية، وقد انتشرت أنباء نجاح محمد ﷺ واستقراره في المدينة في أنحاء الجزيرة، وهذا أثر بشكل كبير على مكانة قريش وقوتها الفعلية، وكان محمد ﷺ وأصحابه يعرفون ذلك وكانوا يتوقعون تصرفاً وشيكاً من العشيرة وأفراد الأسرة الذين كانوا يعرفونهم حق المعرفة.

النزاع مع قريش

لم يهاجر جميع مسلمي مكة، فالذين لم يهاجروا كانوا يتعرضون إلى معاملة سيئة من زعماء قريش، حيث إن هؤلاء الزعماء منزعين من النجاح الذي حققه محمد ﷺ. وفي الواقع فقد بقي بعض المسلمين في مكة دون الإعلان عن اعتناقهم للإسلام، وأصبحوا يخافون الآن من الانتقام الشديد الذي ينتظرهم لا محالة إذا ما اكتشفت قريش إسلامهم.

وقد ذهب بعض من قريش إلى أبعد من ذلك بل قرروا، مخالفة منهم لميثاق الشرف الذي كانت كافة عشائر الجزيرة تلتزم به، الاستيلاء على ممتلكات المهاجرين وحوادثهم التي خلفوها وراءهم في مكة، وعندما سمع محمد ﷺ والمسلمون الذين استقروا في المدينة بهذا التصرف الذي كان عاراً وعملاً ينطوي على الجبن، شعروا بالغضب، فقرروا، بعد ستة أشهر من هجرتهم، مهاجمة قوافل مكة التي تمر بالقرب من المدينة ليسترجعوا ما يوازي ما تمت مصادرته في مكة من ممتلكاتهم.

وفي الأشهر التي لحقت قام النبي بتجهيز ما لا يقل عن سبع حملات (لم يشترك دائماً فيها) ⁽¹⁾ هذه الحملات كانت تتضمن المهاجرين فحسب، لأنهم وحدهم الذين كانوا ضحايا اغتصاب قريش لممتلكاتهم، ولم يتم إشراك الأنصار، لأنهم لم يكونوا طرفاً في الصراع ولم يحدث أي قتال أو قتل في تلك الحملات: فقد كان تجار قريش يتخلون عن بضائعهم ثم يطلق سراهم، وفي بعض الأحيان كان المهاجرون يصلون متأخرين إلى المكان الذي كان من المفترض أن يكون المكيون قد توقفوا فيه، فيجدون أن القافلة قد ارتحلت، وأن العملية قد فشلت، إلا أنهم كانوا ينجحون بصفة عامة واستطاع المهاجرون تحصيل تعويضات ذات شأن على شكل غنائم.

وفي تلك الفترة ذاتها، أرسل النبي ﷺ أيضاً بعثات كانت مهمتها جمع المعلومات عن حركات قريش وأنشطتها، ونواياها (أو احتمال استعداداتها للحرب)، والتحالفات الجديدة التي قد يقيمونها في المنطقة، كانت اليقظة أمراً أساسياً، حيث إن عدوانية قريش كانت تشتد وأصبحت علنية بشكل ظاهر وواسع الانتشار، غير أن إحدى هذه السرايا لم تكن موفقة: كان عبد الله بن جحش ومجموعة صغيرة قد أمروا بالاقتراب مسافة قريبة من عشائر قريش في وادي نخلة (بين مكة والطائف) وجمع معلومات عن نوايا زعمائها، وقد رأوا قافلة فقرر عبد الله بن جحش وأفراد مجموعته مهاجمتها رغم أن الليلة كانت آخر ليلة في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحُرْم التي كانت جميع القبائل تعد الحروب فيها محرمة، وقد قتل أحد رجال قريش واستطاع آخر الهروب وأخذ اثنان من رجال القافلة أسيرين. وعند عودتهم إلى المدينة، غضب النبي ﷺ من فعلتهم التي كانت مخالفة كلياً لتعليماته، هذا الحدث كان نقطة تحول في العلاقات بين المدينة ومكة.

كان الرسول ﷺ يقيم أحلافاً طيلة أكثر من سنة مع بعض القبائل على طول ساحل البحر الأحمر، على طريق كانت تسلكه عادة قوافل مكة المتوجهة إلى الشمال، إلى ما بعد المدينة، إلى العراق وأبلاد الشام. وكان من المحتم أن يزعم ذلك قريشاً التي اضطرت للبحث عن طرق جديدة إلى الشرق كانت التوترات في ازدياد مضطرد ووجدت قريش، التي كانت ترغب في الإساءة إلى سمعة المهاجرين وتأليب قبائل المنطقة ضدهم، ذريعة رائعة في الهجوم على القافلة الذي جرى في الشهر الحرام، وقد دلت الاستخبارات التي تم الحصول عليها من هنا وهناك من قبل مبعوثي محمد ﷺ على أن صداماً بين المسلمين وقريش قد أصبح وشيكاً.

الوحي

أثناء هذه الفترة بالذات، نزل الوحي على النبي ﷺ مرتين متتاليتين، وكان ينطوي على موضوعين مختلفين كل الاختلاف في طبيعتهما، لكنه في المرتين كان ينطوي على خروج عن مجريات الماضي، فقد كان يطلب من المسلمين، طيلة أكثر من ثلاث عشرة سنة، التذرع بالصبر وممارسة المقاومة السلبية في وجه الاضطهاد والإرهاب اللذين كانوا يتعرضون لهما على أيدي زعماء قريش والعشائر الأخرى، لقد تحملوا وثابروا ثم هاجروا دون الرد على العدوان مع تجنب المواجهة.

ولكن بعد أن استقر بالمسلمين المقام في المدينة، كان قد اتضح أن قريشاً سوف تصعد معارضتها وتجد سبباً أخرى للقضاء على رسالة النبي ﷺ، التي لم تعد تهدد التوازن السياسي في مكة فحسب، بل أيضاً نظام القوى

في أنحاء الجزيرة، كان مركز قريش إزاء كافة القبائل والعشائر هو المعرض للخطر وكذلك هيبتهم الدينية والعسكرية، لقد كانت الهجرة التي كانت تحرراً للمسلمين، تعني أيضاً صراعات وحروباً قادمة.

ثم نزل على النبي وحي لم يدع مجالاً للشك:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣١) ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (٢).

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لاحقاً عند سماعه تلك الآية، إنه فهم على الفور أنها تعلن بصراع وحرب وشيكن، مثلما فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الآخرون من تلك الآية، بعد الآية لم يعد يطلب من المسلمين ممارسة المقاومة السلبية، بل كان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد عدوان العدو.

فإلى «الجهاد» الروحي والاستخباري، الذي كان يتمثل إما في مقاومة أحلك إغراءات الذات الأنانية أو الجشعة، أو العنيفة أو بالرد على حجج الوثنيين المتناقضة من خلال القرآن، فقد أضيف الآن شكل ممكن جديد لـ «الجهاد» تمثل في القتال والمقاومة المسلحة اللازمة للعدوان المسلح والدفاع عن الذات ضد الطغاة.

إن جميع أشكال الجهاد، كما يظهر بوضوح، مرتبطة بمفهوم المقاومة. هذا المفهوم ينطبق أيضاً على صعيد القتال، النضال المسلح، في آخر الآية تم التعبير عن القتال بأنه لازم لمقاومة الميل البشري الطبيعي إلى التوسع واضطهاد الآخرين:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوْمِعُ وَبِعُ
وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (3).

لقد اعتبرت الحاجة إلى توازن وتنظيم القوى ضرورة موضوعية بالنظر للطبيعة البشرية، إن القوة المطلقة لفرد واحد أو لأمة واحدة أو لإمبراطورية واحدة من شأنها أن تؤدي إلى إبادة التنوع بين البشر وإلى تدمير مختلف أماكن العبادة (القائمة تنتهي بالمساجد)، التي ترمز هنا إلى تعددية الأديان الكائنة بإرادة الله ومشيئته، لذا، فإن المواجهة بين القوى ومقاومة إغراء البشر بشن الحرب، عبر عنهما، في مفارقة ظاهرية، بأنهما يعملان على تحقيق السلام بين البشر، هذا ما أكدته الآية الأخرى على صعيد أعم:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (4).

في أول الخلق سألت الملائكة الله عن أغراضه من خلق البشر ليكونوا خلفاء له: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ (5). كان سؤالهم هذا تذكرة بأن الجنس البشري هو - في طبيعته - متعطش للسلطة ويميل إلى نشر الشر وإلى القتل: أما الجانب الآخر من البشر، أي محبتهم للخير والعدل، فإنه يتعين عليهم المقاومة ومن خلال التوصل إلى توازن، يهيئون الظروف المؤدية إلى السلام وهو الثمرة الهشة للتوازن بين القوى والميول المتعارضة، وهكذا، فإن كلاً من «الجهاد» و«القتال» هما الطريقتان اللتان، سيتيحان - عبر مقاومة الإغراءات المظلمة للذات الداخلية فضلاً عن نزعة البشر البغيضة إلى الحرب - المجال للتوصل إلى السلام، الذي

يعد ثمرة جهد متواصل ومتجدد للتغلب على الإغراءات فضلاً عن الطغاة، إن جوهر «الجهاد» هو السعي إلى تحقيق السلام، أما القتال فهو، في بعض الأحيان الطريق اللازم للوصول إلى السلام.

كان المسلمون يواجهون حقبة جديدة مفتوحة أمامهم في المدينة، كان عليهم أن يواجهوا عقابيل الحروب، وضحاياها الذين يقتلون والمعاناة التي تزداد شدة جراء كون أعدائهم من عشائر المهاجرين أنفسهم، من أقاربهم. تلك كانت تكلفة بقائهم.

تغيير القبلة

كان قد مضى على استقرار المسلمين في المدينة سنة ونصف السنة تقريباً عندما نزل الوحي الثاني المشار إليه آنفاً، كانت القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم حتى ذلك الحين هي القدس، لكن جاء أمر مفاجئ من الوحي:

﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤) (٦).

هذه الآية تنطوي على عدة رسائل وقد كان لها عواقب على علاقات النبي بالقبائل اليهودية والنصرانية، حيث إن هذا التغيير أنشأ تمييزاً، ومسافة، بين الأديان السماوية التوحيدية، ومع إن القدس ظلت أساسية في قلب الإسلام، إلا أن التوجه الجديد في الصلاة أعاد طقوساً مباشرة

وصلة روحية بين إبراهيم عليه السلام - الذي بنى أول بيت وضع للناس لعبادة الله - والإسلام التوحيدي، وقد ابتهج المسلمون بهذا وفهموا أنه عودة إلى الأصول، إن توجيه الوجه يعني توجيه كيان الإنسان وقلبه إلى المنبع، الأصل، الإله الواحد، إله إبراهيم عليه السلام، إله الكون والبشرية، وهكذا فقد استعادت الكعبة وظيفتها الأولية، فعلى الأرض هي بيت الله، المركز الذي تتوجه الآن إليه جميع القلوب، من كافة الأطراف.

لكن القبائل اليهودية لم تكن لتبتهج بهذا التغير، فمنذ بداية استقرار المسلمين في المدينة، كان يوجد اختلافات بين اليهود والمسلمين تتعلق بالاعتراف بالله الواحد وتوقيع المواثيق بل كان أيضاً عند اليهود - بشكل أكثر خفية - شكوك بشأن الدين الجديد وكانوا يخشون من أن يشكل توسعه تهديداً لهم، وكان قد تنامي إلى سمع محمد صلى الله عليه وسلم أن جرت اتصالات بين بعض القبائل اليهودية وبعض حلفاء قريش، فبالنظر لعدم الثقة هذه، لم يكن الوحي الذي جاء بهذه الآية ليعزي وجهاء المدينة من اليهود؛ لأن التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بدا من الواضح الآن أنه يختلف عن رسالة اليهودية.

وعلاوة على ذلك فإن تغيير القبلة كان رسالة لا تقبل وضوحاً وقوة لسكان مكة، فالوضع المركزي الذي أخذت المدينة تنعم به في رسالة الدين الجديد جعل سكانها يخشون من نوايا المسلمين في المستقبل بشأن المدينة والكعبة، ولم يكن هذا بالشئ الذي تقبله قريش وأصبح من الواضح الآن أن القضاء على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذي يمكن أن يحميهم ويضمن لهم استمرار الامتيازات التاريخية التي كلفهم الحصول عليها الكثير من الجهد والمشقة.

قافلة

كان النبي ﷺ قد علم للتو بأن قافلة بقيادة أبي سفيان كانت في طريق عودتها من بلاد الشام وهي تحمل الكثير من البضائع وأن الغالبية العظمى من عشائر قريش قد شاركوا في هذا المشروع التجاري، فقرر محمد ﷺ اعتراض القافلة، وكان أحد أسباب ذلك هو السبب السابق نفسه الذي دفعه إلى مهاجمة القافلة السابقة: الرغبة في استرجاع الممتلكات التي استولت عليها قريش عندما اغتصبوا ممتلكات المهاجرين بعد ذهابهم إلى المدينة، والسبب الثاني هو أن من شأن ذلك أن يمثل إظهاراً للقوة للتأثير على سكان مكة، الذين كانوا يتآمرون بشكل متصاعد ضد المدينة.

انطلق النبي ومعه (209) أو (313)، حسب بعض الروايات، من أصحابه، بمن فيهم المهاجرون والمنفيون من مكة، والأنصار، والمسلمون من أهل المدينة، وكانوا يحملون أسلحة ذات شأن - بالنظر لأهمية القافلة التي كانوا ينوون مهاجمتها - رغم أنهم لم يكونوا في واقع الأمر مهيبين للحرب. كان النبي ﷺ قد طلب من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو أحد المهاجرين من مكة، الذي كان من الطبيعي أن يكون جزءاً من الحملة، البقاء في المدينة من أجل الاعتناء بزوجته رقية، ابنة النبي ﷺ، التي كانت تعاني من مرض شديد⁽⁷⁾.

كان النبي ﷺ ينوي اعتراض القافلة في بدر، لكن أبا سفيان كان قد جاءه تحذير بالهجوم الوشيك من قبل جواسيسه، فأرسل مبعوثاً إلى زعماء مكة لإخبارهم بالخطر الذي كان معرضاً له وطلب المعونة، وقام على الفور

بتغيير طريقه، وعندما تأكد من أنه استطاع الإفلات من الهجوم، أرسل مبعوثاً آخر إلى زعماء قريش لإخبارهم بأن الخطر قد زال وأنه لم يعد بحاجة إلى معونة، غير أن زعماء قريش كانوا قد انطلقوا ومعهم ما ينوف عن ألف رجل وقرروا، بناء على إصرار أبي جهل، بوجوب الاستمرار في الحملة رغم زوال الخطر الظاهر. ومع أنه كان بالإمكان تفادي المواجهة، فإنهم، بدورهم كانوا عازمين على إظهار قوتهم ضد عدوهم. وسمع النبي ﷺ وأصحابه، الذين عسكروا قرب بدر، بأن جيشاً ضخماً قد انطلق من مكة. وكان هذا يعني تغييراً كبيراً في الخطط: كانوا قد انطلقوا من المدينة ليضعوا أيديهم على القافلة وما تحمله من بضائع (وهو ما لم يستطيعوا القيام به)، أما الآن فإن جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف حجم قوتهم كان يسير إليهم، وزعماءه مصرون على ما يبدو على حسم الموقف بالقتال، كانت هذه حرباً لم يكن المسلمون مستعدين لها في واقع الأمر.

المشاورات

كان محمد ﷺ يفكر بما إذا كان يتعين عليه التقدم ومحاولة اللحاق بالقافلة أو التوقف والعودة إلى المدينة بغية تجنب الاصطدام بجيش قريش الضخم، فقرر استشارة أصحابه لاستطلاع رأيهم بالمسألة. كان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - أول المتكلمين وأكدوا استعدادهما للتحرك إلى الأمام والمخاطرة بمواجهة شاملة، ثم تكلم مهاجر آخر، المقداد بن عمرو، فقال: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك» (8).

سُرَّ النبي ﷺ لهذا الموقف وأشرق وجهه، لكن هذا ما كان يتوقعه بالطبع من المهاجرين، كان يحتاج إلى الدعم الصريح من الأنصار، لأنهم لم يكونوا طرفاً مباشراً في الصراع مع قريش وكانوا قد وقعوا اتفاقية مناصرة لا تلزمهم إلا في حالة الحرب في المدينة، لا خارجها. وقال سعد ابن معاذ رضي الله عنه، ممثلاً الأنصار، بعزم وإصرار: «افعل ما شئت ونحن معك. فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لحضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد» (9). بعد أن حصل محمد ﷺ على موافقة الفئتين، قرر السير قدماً غير خائف من تحركات قريش.

كان النبي ﷺ طيلة بعثته يستشير أصحابه ويشجعهم على الإعراب عن آرائهم ويعيرهم انتباهه الكلي، وكان النبي ﷺ قد استحدث أيضاً أسلوباً تعليمياً حقيقياً أتاح للمسلمين تطوير مواهبهم النقدية والتعبير عن مواهبهم وأن ينضجوا في وجوده، كان كثيراً ما يطرح أسئلة عن مختلف المواضيع ولا يعطي الإجابات إلا بعد أن يكون أصحابه قد أعملوا فكرهم وأعربوا عن تخمينات مختلفة، وفي بعض الأحيان كان يطلق حكماً، بطريقة حاذقة ولطيفة لا تخلو من مفارقة، يدفع المستمعين بواسطتها إلى إمعان التفكير بالموضوع، على سبيل المثال قال مرة: «من الرجل القوي الذي يتغلب على عدوه؟» تشاور الأصحاب فيما بينهم بهذا الصدد ثم سألوهم: «من هو الرجل القوي إذاً؟» أثار النبي دهشة أصحابه وقادهم إلى فهم أشد عمقاً للسؤال في إجابته: «الرجل القوي هو الذي يملك نفسه عند الغضب» (10). وفي بعض الأحيان كان يتحدث مجازياً: «ليس الغنى بالثروة التي بين أيديكم!» بعد أن فكر الأصحاب في

هذا القول، أضاف النبي ﷺ بعض التفاصيل قائلاً: «الغنى الحقيقي هو غنى النفس» (11). في بعض المناسبات كانت أقوال النبي ﷺ تبدو مخالفة للمنطق السليم أو للآداب: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!» لم يسع الأصحاب سوى التفكير بطبيعة النصرة التي يتعين عليهم تقديمها لأخ ظالم، كيف يمكن ذلك؟ فيضيف النبي ﷺ، من منطلق عكسي: «خذوا على يده وامنعوه من الظلم فتصروه بذلك!» (12).

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يلجأ إلى طرح الأسئلة أو طرح أحكام تنطوي على مفارقات أو تبدو متناقضة وذلك لتنشيط ملكاتهم النقدية وقدرتهم على تجاوز مجرد الطاعة العمياء، أو التقليد الآلي الذي يدمر العقل، هذا الأسلوب عمل على تطوير القدرة الفكرية اللازمة لكي تكون المشاورات مجدية، بل إذا كان للصحابة أن يقدموا نصيحة مفيدة، فإن عليهم أن يكونوا يقظين فكرياً وجراًء ومستقلين، حتى في وجود نبي لا بد أن تكون شخصيته ومركزه قد آثار إعجابهم.

فمن خلال تحفيز ذكائهم وإتاحة الفرص لهم كي يتكلموا، تمكن النبي ﷺ من ممارسة نوع من القيادة التي مكنت الصحابة من تعلم كيفية تأكيد أنفسهم وأخذ زمام المبادرات.

كان حباب بن المنذر رضي الله عنه مثلاً بارزاً على ذلك في هذه المدة التي نحن بصدها، فعندما وصل إلى بدر، عسكر النبي ﷺ قرب الآبار الأولى التي وجدها، عندما رأى ابن المنذر رضي الله عنه ذلك، جاء إلى النبي ﷺ وسأله: «أرايت هذا المنزل، أم منزلاً أنزله الله لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» (13). فأكد له النبي ﷺ أن ذلك كان رأيه

الشخصي، عندئذ اقترح ابن المنذر رحمه الله خطة أخرى له تقضي بأن ينزلوا قرب أكبر بئر، هو الأدنى من الطريق الذي سيأتي منه العدو، ثم يتم تغوير الآبار الأخرى التي في المنطقة بحيث لا يتمكن العدو من الوصول إلى الماء، وبذلك فإن أعداء المسلمين سيجدون أنفسهم أثناء المعركة، في موقف صعب. وقد أصفى النبي صلى الله عليه وسلم بكليته للإستراتيجية التي شرحها وأقرها على الفور: فتم نقل المعسكر وتم تنفيذ خطة حباب رحمه الله.

هذا المثال يدل على أن الصحابة كانوا يميزون بين ما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من وحي، فيطيعوه دون أدنى تردد، وآراء محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان، التي يمكن مناقشتها، أو حتى رفضها كلياً. فلم تكن سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخص الشؤون البشرية استبدادية مطلقة وغير مقيدة، فقد كان يتيح لصحابته دوراً لا يستهان به في التشاور، وأوجدت تعاليمه، كما رأينا، الظروف التي تمكن من اكتساب تلك القدرات النقدية والإبداعية. لقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته، من نساء ورجال على السواء، الوسائل والثقة التي تمكنهم من الاستقلال ومن الجرأة في مخاطبته ومناقضته دون أن يُعد ذلك عدم احترام لمقامه، فمن خلال هذه المواقف، كان يظهر لهم احترامه العميق لذكائهم ولقلوبهم: أما هم، فقد أحبوا نبيهم، وقائدهم على هذا الاهتمام بهم وقربه منهم، وهذا الطلب بأن يستخدموا قدراتهم إلى أبعد الحدود.

معركة بدر

عندما اتضح أن القافلة قد نجت وأن حرباً واسعة النطاق توشك أن تندلع، حاول محمد صلى الله عليه وسلم ثني قريش عن اختيار الحرب، فأرسل عمر بن

الخطاب ﷺ ليقترح على قريش أن تعود وبذلك تتجنب المواجهة، وكان يوجد أيضاً بين القرشيين من يريد تجنب الحرب، بل إن عُتبة، وهو أحد زعماء مكة، عرض أن يدفع دية لحليفهم الذي قتل في الشهر الحرام. لكن ذلك لم يجد، فقد كان دعاة الحرب من القرشيين مصممين وكانوا يعرفون أن أعدادهم كانت لمصلحتهم. بل إنهم اعتبروا محاولة عمر ﷺ دلالة على الضعف، كانت تلك فرصة عظيمة لهم للقضاء على الجماعة الإسلامية والتخلص من محمد ﷺ.

من جهته، جاءت إلهامات إلى النبي ﷺ ورأى منامات، فقد أدرك أن الحرب ستندلع من هذه المواجهة مع قريش وأن نتيجتها ستكون لمصلحته. فظل يدعو الله ويشجع أصحابه على الصبر والصمود، فقال لهم: «والذي نفس محمد بيده، لا يقتل اليوم أحد، مقاتلاً يبغي الأجر، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله إلى جنته»⁽¹⁴⁾. ثم سجد سجوداً طويلاً داعياً الله أن ينجز له وعده ويحفظ أمته وينصر المسلمين، حتى دعاه أبو بكر ﷺ إلى الكف عن ذلك، حيث إنه كان يعلم أن الله لن يخذله.

كانت المعركة ستجري في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (624 م). وفي الطريق إلى بدر، ذكر النبي ﷺ المسلمين الذين كانوا يريدون أن يصوموا بأن ذلك ليس إلزامياً في حال السفر. «ليس من البر الصيام في السفر، عليكم بالاستفادة من الرخص التي أعطاكم الله إياها، فخذوها»⁽¹⁵⁾. كان يستفاد من كل ظرف من ظروف الحياة تذكرة المسلمين بتعاليم دينهم، وظل النبي ﷺ يؤكد على الرخص الممنوحة للمؤمنين، الذين يتعين عليهم التيسير في ممارسة دينهم وأن

يبشروا ولا ينفروا. «يسّروا ولا تعسروا! بشّروا ولا تنفروا!» (16). وقد تعمد النبي ﷺ شرب الماء على مرأى من الصحابة في تلك المناسبة وذلك ليكون قدوة لهم.

بدأت المعركة بثلاث مبارزات اشترك فيها حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث - رضي الله عنهم - وقد تغلب حمزة وعلي على خصميهما لكن عبيد الله أصيب بجرح خطير، وبدأ القتال وأظهر المسلمون من الثبات ما جعل قريش تنهزم سريعاً، ومع أن أعداد قريش كانت تفوق أعداد المسلمين بثلاثة أضعاف، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه هجوم المسلمين. ونزل الوحي لاحقاً يذكر بتأييد الله المتواصل وملائكته في قلب المعركة، وإنجازه وعده: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمِ أَذِلَّةٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (17). كان هذا النصر نقطة تحول: فقد نال كثيراً من هيبة قريش وسيطرتها وانتشرت أنباء هزيمتها كالنار في الهشيم في أنحاء الجزيرة.

فقد المسلمون أربعة عشر من رجالهم، بينما فقدت قريش ما ينوف عن السبعين، بمن فيهم أبو جهل الذي كان من أشد خصوم الإسلام والذي كان أكثر تلهفاً للمعركة، وكان العباس رضي الله عنه، عم النبي ﷺ الذي كان النبي ﷺ يسّر إليه في مكة، والذي شهد كافة الاستعدادات التي سبقت الهجرة) بين الأسرى القرشيين الذين كان عددهم يفوق السبعين.

في مكة، في المدينة

كانت عودة قريش إلى مكة مؤلمة، وكانت معظم العشائر قد فقدت أفراداً منها. وكان بعضهم قد بدؤوا يطالبون بالانتقام، مثل هند التي فقدت أباهما

وأخاها وعمها في المعركة، وقد أقسمت بأن تشرب من دم حمزة رضي الله عنه الذي قتل أباه وعمها، ولم يضع زعماء قريش الوقت في ردود أفعالهم، فأخذوا يقيمون التحالفات مع المدن والقبائل المجاورة من أجل قتال المسلمين والانتقام لما أصابهم من إذلال ووضع نهاية لوجود المسلمين في الجزيرة.

كان أبو لهب، الذي منعه المرض من الاشتراك في القتال، قد بقي في مكة، وقد طلب من أبي سفيان أن يخبره بما جرى وعن ظروف الهزيمة⁽¹⁸⁾. وفيما كان ذلك الأخير يسرد روايته، لم يستطع أحد الأرقاء، الذي كان جالساً بالقرب منهما، والذي كان قد كتم سر اعتناقه للإسلام، تمالك نفسه من الفرح فاكتشف أمره، فقفز أبو لهب عليه وضربه بوحشية بعد أن طرحه أرضاً، فقامت أم الفضل، زوجة العباس - رضي الله عنهما - التي كانت موجودة أيضاً والتي كانت قد دخلت سراً في الإسلام، واندفعت نحو أبي لهب وهوت عليه بضربة من عمود خيمة.

وقد أصيب جرح رأسه العميق بالتهاب في الأيام اللاحقة ثم انتشر إلى كامل جسمه ومات بعد بضعة أسابيع، كان كل من أبي لهب وزوجته يطلقان العنان لكراهيتهما للإسلام، وقد جاء في القرآن، قبل عدة سنوات، ما ينتظره هو وزوجته من مصير⁽¹⁹⁾. وخلافاً لبعض الطفافة الآخرين الذين غيروا موقفهم في خاتمة المطاف، فإن أبا لهب وامرأته لم يظهرأ أي تعاطف مع رسالة محمد صلوات الله عليه. وقد أكد موت أبي لهب الذي اقترن بالإهانة والعنف، ما ورد في الوحي: فكلاهما كانا سيظلان، حتى النهاية، من الكافرين والمتمردين.

كان المسلمون قد دفنوا موتاهم وكانوا يستعدون للعودة إلى المدينة. كان معهم سبعون أسيراً، جرت مناقشة بشأن مصيرهم بين النبي صلوات الله عليه وأبي

بكر وعمر — رضي الله عنهما —. كان عمر رضي الله عنه يريد أن يقتل الأسرى، وخالفه أبو بكر رضي الله عنه في ذلك، وقرر محمد صلّى الله عليه وآله إبقاءهم على قيد الحياة، باستثناء أسيرين كانا شديدي القسوة على المسلمين في مكة، حيث كانوا يذلونهم ويعذبونهم حتى الموت، وكان إبقاء الأسرى يمثل وسيلة أخرى لإذلال مشركي قريش، الذين كانوا سيضطرون إلى الذهاب إلى المدينة ودفع فدية كبيرة (تعود أيضاً على المسلمين بربح كبير). غير أن الوحي نزل لاحقاً معاتباً النبي صلّى الله عليه وآله على هذا الخيار، الذي كان الباعث إليه بشكل رئيس الحصول على المال⁽²⁰⁾.

وعلاوة على ذلك، كان الجنود المسلمون قد اختلفوا حول تقاسم الغنائم، وتم الإعراب عن آراء مختلفة بشأن مزايا مختلف فئات الجنود وطريقة توزيع الغنائم. كانت العادات السائدة قبل الإسلام والتي كانت كمية الغنائم التي يتم اكتسابها بعد الحرب تسهم في تحقيق الفخر والشرف للمنتصر، لا تزال عميقة الجذور. وقد أشار التنزيل القرآني إلى هذا النزاع وأوضح بأن الأنفال يجب أن تذهب إلى «الله والرسول»، مما يعني أنه كان يتعين على النبي صلّى الله عليه وآله توزيع الغنائم توزيعاً عادلاً حسب أوامر القرآن، وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذا النزاع، وبذلك فقد وضعت نهاية لتلك المنازعات⁽²¹⁾. وقد واجه النبي صلّى الله عليه وآله المرة تلو الأخرى مثل تلك المنازعات بين أصحابه، وفي كل مرة كان الوحي أو النبي صلّى الله عليه وآله نفسه يذكرهم بأنه يتعين عليهم أن يسألوا أنفسهم عما كانت عليه نواياهم: هل كانوا يسعون وراء الثروة في هذه الدنيا أو السلام في الآخرة؟.

كانوا لا يزالون بشراً، بنقاط ضعفهم والإغراءات التي يتعرضون لها. كانوا بحاجة إلى من يذكرهم وإلى تربية روحية، وإلى الصبر.

وكما هي حال كل شخص، أكانوا قريبين من النبي ﷺ أو في أي زمن من التاريخ البشري، كانوا بحاجة إلى من يذكرهم وإلى التربية الروحية، فالتاريخ يُنبئنا بأنه لا ينبغي أن يعتبر أي شيء أو أي أحد قد بلغ مرتبة الكمال المثالي.

عندما وصلوا إلى المدينة، تم إخبار النبي ﷺ بوفاة ابنته رقية - رضي الله عنها - زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه. كان قد فقد حديثاً أول أصحابه، والآن جاءه نبأ رحيل ابنته وهو عائد من غزوة تكلت بالنصر، وذكره مزيج الحزن والفرح بهشاشة الحياة، ومرة أخرى، بعلاقته الأساسية بالواحد الأحد في السراء والضراء، فما من شيء يدوم، وقد تزوج عثمان رضي الله عنه لاحقاً أم كلثوم - رضي الله عنها - وهي من بنات النبي ﷺ، بينما تزوج النبي ﷺ حفصة - رضي الله عنها - ابنة عمر رضي الله عنه، والتي جاءت لتسكن في أحد بيوت النبي ﷺ قرب المسجد.

وبدأت المساومة مع أقارب الأسرى، فبعض الأقارب قدموا لدفع ما يتوجب عليهم وعادوا بمن افتدوه من أسرتهم. وتم إطلاق سراح بعض الأسرى دون فدية، بينما جرى التعامل مع أفقر الأسرى، كل واحد على حدة، حسب ظروف كل منهم. على سبيل المثال، تعهد الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة والذين لم يكن بوسعهم دفع فدية بأن يعلموا عشرة من شبان المدينة القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحهم، ومرة أخرى برهن النبي ﷺ على أهمية العلم عبر الرسالة التي أرسلها إلى أفراد أمته، فسواء في السلم أو في الحرب، فإن العلم - التعلم والقراءة والكتابة - يوفر للناس مهارات أساسية ويضفي عليهم الكرامة والسمو. فاعلم الذي كان لدى بعض الأسرى كان ثروتهم وأصبح فديتهم.

بنو قنيقاع

اقتربت الشهور التي أعقبت العودة من بدر بصعوبات على الصعيد الإقليمي، فبعد بضعة أيام من العودة من بدر، اضطر النبي ﷺ إلى قيادة قوة من مئتي رجل إلى قريتي بني سليم وبني غطفان في منطقة القُدر للقضاء على مؤامرة ودرء أي أذى، فهرب السكان، أصبح من الواضح الآن أن وضع الجماعة الإسلامية قد تغير، وكانت مدن كثيرة في المنطقة، فضلاً عن الذين لم يبرموا أي حلف، يخشون من القوة العسكرية والسياسية والرمزية التي يكتسبها محمد ﷺ في قلب الجزيرة العربية.

كان النبي ﷺ يتلقى دائماً أنباء استخباراتية عن المبادرات ومحاولات التحالف التي يقوم بها زعماء مكة من أجل إطفاء تعطشهم للثأر، وقد مكّنه منام ملهم من إحباط محاولة اغتيال من قبل عمير بن وهب، الذي بعد أن أصابته الدهشة بشأن ما كان النبي ﷺ قد عرفه عن المحاولة، دخل في الإسلام على الفور، غير أن محمداً ﷺ كان يعلم أن قريشاً ستقوم عما قريب بإجراء واسع النطاق بمساعدة كل القبائل التي استطاعوا حشدها.

بعد عودة النبي ﷺ من بدر، لاحظ أن عدداً من أهل المدينة شعروا بخيبة أمل أو بالقلق جراء نجاح المسلمين، وكان قد عرف عدداً من المنافقين الذين دخلوا في الإسلام بدافع من المصلحة الذاتية والحسابات السياسية، كما أنه كان يعلم أن بعض الذين وقعوا على اتفاقية التحالف التي تم إبرامها أول وصوله إلى المدينة لا يمكن الاعتماد عليهم وأنهم لن يترددوا في الانقلاب عليه عندما تسنح لهم الفرصة، وكان قد نزل وحي على النبي ﷺ يحذره من المنافقين: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذَرْهُمْ﴾

إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَلَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ (22). وظل النبي ﷺ إلى حين، يكتفي بمراقبة أنشطة مختلف الجماعات، ويقبل موثيق المنافقين على ظاهرها ويتقيد بصرامة بشروط الاتفاقية، إذ إن الوحي طلب منه الحرص والحكمة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (23).

كانت قبيلة بني قنيقاع اليهودية هي وحدها التي كانت تقيم داخل المدينة من بين القبائل اليهودية المقيمة في منطقة المدينة، وكانوا قد وقعوا على الميثاق، غير أن أنباء تنبه بالخطر عن الخيانة واحتمال وجود مؤامرة وصلت إلى النبي ﷺ من بين صفوفهم، للتأكد من حقيقة ما يجري، ولتجنب ترك بني قنيقاع يعتقدون بأن بوسعهم التصرف كما يحلو لهم، زارهم النبي ﷺ ودعاهم للتفكير في هزيمة قريش، فرد زعماء بني قنيقاع بصلف بأنهم إذا حاربوه، فإن النتائج لن تكون كما كانت، وأنهم سوف ينتصرون بالتأكيد، كان في الرد الذي ينطوي على التهديد تأكيد لشكوك محمد ﷺ: لقد أصبحوا معادين للمسلمين.

بعد بضعة أيام، ذهبت امرأة مسلمة كعادتها إلى سوق بني قنيقاع. وهناك تعرضت للسخرية والإهانة من قبل أحد التجار الذي ربط رداءها من ظهرها بينما كانت جالسة، فلما وقفت انكشف الجزء الأسفل من جسمها. وأراد رجل مسلم رأى ما جرى أن يتدخل: فبدأ القتال وأسفر عن موت كل من التاجر والرجل المسلم جراء إصابات كل منهما، ف بموجب الميثاق كان يتعين معالجة تلك الحالة من قبل النبي ﷺ وحلها سلمياً وضمن مبادئ العدل والشرف، ولكن بني قنيقاع خانوا العهد عبر محاولتهم التحالف مع ابن أبي سلول، وهو منافق كانوا يساومونه منذ بعض الوقت وكانوا يأملون أن يساعدهم في حشد حلفائهم في المنطقة لقتال المسلمين.

كان رد فعل النبي ﷺ سريعاً، حيث جمع جيشاً وقام بمحاصرة الحصن الذي هرب إليه بنو قتيقاع لحماية أنفسهم، كانوا يأملون أن تأتيهم مساندة خارجية من المدينة من صفوف المسلمين عبر المنافقين الذين دخلوا في الإسلام اسمياً فحسب، والذين كانوا دائماً يطمئنون بني قتيقاع بأنهم كانوا هم أيضاً يرجون القضاء على الجماعة الإسلامية. غير أنه لم يأتهم أي دعم، وبعد حصار استمر أسبوعين استسلم بنو قتيقاع.

وتذكر النبي ﷺ الوحي الذي نزل عليه من أنه ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ رغبة في الحصول على مكسب⁽²⁴⁾. كان له الخيار في قتل رجال القبيلة الذين خانوا العهد ونفي نسايتهم وأطفالهم، كما جرت العادة في الحرب بعد تحقيق النصر، وكان من شأن هذا أن يرسل رسالة صارمة إلى القبائل المجاورة بشأن ما ينتظر كل من يخون الجماعة الإسلامية أو يهاجمها، وكان قد نزل عليه وحي بهذا الصدد: ﴿ فَأَمَّا تَشَفَّعْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾⁽²⁵⁾.

ومع ذلك فقد استقبل النبي ﷺ ابن أبي سلول - الذي كان يعرف نفاقه وتآمره السري - عندما جاء ليشفع لبني قتيقاع، ومرة أخرى، قرر عدم القضاء على أسراه لكنه أمر بمصادرة ممتلكاتهم وبأن يخرجوا من المدينة، فلبجؤوا إلى بعض القبائل الأخرى والجماعات في المنطقة، لكن ذلك لم يمنعهم من التآمر على النبي ﷺ. بل على العكس من ذلك، فإن ما لحق بهم من إذلال في حقبة قريبة العهد زاد من حقدهم: وظل عدد أعداء النبي ﷺ يزداد وحقدهم يتعمق، وكان النبي ﷺ يعرف ذلك حيث ظل يدعو أصحابه إلى الحكمة والصبر، فضلاً عن اليقظة.